

## الحديدية

## مرجريت تاتشر

نعم، تاتشر  
ومن لا يصدق يذهب إلى ١٠ داوننج ستريت ليرى:  
من يحكم هناك...!!  
أو من كان يحكم هناك؟  
إنها تاتشر، بالقطع..  
وليس ميجور غير تاتشر  
وليس (الرجل الرمادى) كما يسمونه هناك غير حجم متضائل فى ظل (الست)  
وليس سياسة التى ينفذها غير سياسة الست  
إن تاتشر التى أخرجت قسرا من زعامة حزب المحافظين فى دورة الاقتراع الأول رفضت أن  
تعود إلى منزلها..  
ورفضت أن تستريح وتكتب مذكراتها  
ورفضت الاعتراف والاعتزال والصمت  
رفضت تاتشر هذا كله، وراحت تحتفظ بكرسى لها فى مجلس العموم، وتشيع عن نفسها أنها  
ستعين رئيساً للمجموعة الأوروبية أو منصباً كبيراً فى الأمم المتحدة. أو..  
ولا زالت الصحف البريطانية - والعربية - تتحدث عن المرأة الحديدية Madame de fer التى  
كانت تهيمن على الحزب الحاكم سواء عن سياستها العالمية أم المحلية.  
تاتشر ما زالت تحكم: فى الغرب والشرق  
فى الغرب ما زالت تاتشر قائمة فى كل الممارسات كراهية الشرق، تأييد إسرائيل، محاباة  
المسؤولين البريطانيين من اليهود، تأييد الحاخامات..  
وفى الشرق، ما زالت الصحف العربية تشيد بتاتشر، المرأة الصلبة التى كانت، سياسة المرأة  
التى تستمر، الأنبيهار بما تردده وسائل الإعلام الغربية عنها..  
وإذا كان هذا السلوك فى الغرب مفهوماً بحكم التكوين التاريخى والموقف الاستعماري، فإنه  
لا يكون مفهوماً عندنا فى الشرق العربى، إننا لا نفتح صحيفة أو مجلة - حتى اليوم - إلا ونجد

أخبار تاتشر و (التاتشرية)، بل إن إحدى الصحف خصصت صفحات في العالم العربي عنها (الحياة)، وبعض المجلات وضعت صورتها الملونة على غلافها (أكتوبر) فضلا عن تعديد مآثرها أكثر من أحد عشر عامًا.

إن الإعجاب بتاتشر، والانبهار بأحداثها وابنها وزوجها ووزرائها، وبيتها في ضاحية داليتش بجنوب العاصمة البريطانية مازال يملأ صحفنا وإعلامنا..

وإذا كان لتاتشر الوجه اللامع والسياسة (التاتشرية) القائمة في بلادها، فإن ما يهمنا نحن منها هنا: سياستها، موقفها من قضايانا العربية..

إن ما يهمنا منها هذا الوجه السافر بالعداء، العامر بالغضب والكرهية لنا، وهذه السياسة التي ورثتها لحزب المحافظين الذي ما يزال يحكم..

وهو ما يدفعنا لتقرب أكثر، ونسأل:

ما هي ملامح الوجه الحقيقي (للست) تاتشر؟

نقصد بالقطع، الوجه الغربي، القبيح..

وسوف نجيب عبر عدة مشاهد متواليّة..

## كلاكيّة ١

في البدء الاستعمار الإنجليزي..

وانعكس في شكل (الهيمنة) على مقدرات العالم العربي في القرن التاسع عشر، واستخدم في هذا كل أدوات العنف سواء الاحتلال أم السيطرة الاقتصادية أو السيطرة إلى البحر.. إلى غير ذلك.

وقد اتخذت هذه الهيمنة شكلا ظاهرياً زعم صاحبها حمل رسالة الرجل الأبيض لتحضير الرجل المتخلف - غير الأبيض - خارج القارة الأوروبية..

وقد استخدم الاستعمار الإنجليزي ترفعه وغطرسته في الهيمنة على البلاد العربية سياسياً واقتصادياً، وقد مثلت هذه السياسة أسماء عديدة، وحتى نذكر إلى أي مدى كان غلاة المستعمرين مصممين على النيل من العالم الثالث، سوف نتذكر معاً كيف جلس على مقعد رئيس الوزراء الإنجليزي قرابة سبعين وزيراً منهم (ولنتأمل قليلاً الأسماء):

- وليام جلاستون ١٨٦٨ - ١٨٧٤، ١٨٨٠ - ١٨٨٥ وهو الذي شهد احتلال إنجلترا لمصر والسودان..

- ونستون تشرشل ١٩٤٠ - ١٩٤٥، ١٩٥١ - ١٩٥٥.

وهو الذي شهد انتفاضة الشعب المصري والسوداني ضد الإنجليز، والمؤامرات التي انتهت بنكبة ١٩٤٨ وما أعقبه من الاعتراف بهذا العضو الدخيل عالمياً، والمؤامرات ضد ثورة مصر

١٩٥٢ بحلف بغداد، والعدوان الإسرائيلي على الحدود المصرية، والعدوان الثلاثي بعد تأميم قناة السويس.. إلخ.

- انتوني إيدن ١٩٥٥ - ١٩٥٧.

وكلنا نذكر دوره السيئ في شن العدوان الثلاثي على مصر، ثم هاوارد ماكيلان ودوجلاس هيوم وهاارولد ويسلون وكالاهان.. وهنا، قفزت (الست) تاتشر على كرسي رئيس وزراء إنجلترا قرابة اثني عشر عامًا ١٩٧٩ - ١٩٩٠.

جاء الوجه الأخير، والقبيح، للاستعمار الإنجليزي القديم..

وحين جاءت، كانت أمريكا، قد أحكمت سيطرتها - كاستعمار سياسى واقتصادى - على العالم، فوجدت نفسها تقف في نفس المعسكر ضد العالم القديم كله، ضد العالم الثالث بكل ما فيه من حركات تحرر ونقاط توتر مستمرة..

جاءت تاتشر وليس أمامها غير أن تنافس أمريكا..

ولم يكن التنافس هو مجرد موقف مجرد، وإنما، هو استعادة لحلم إنجليزي قديم من أيام الإمبراطورية التي (كانت) - في يوم ما - لا تغرب عنها الشمس..

وتبلور الموقف العدائى فى التعالى على الشعوب والنيل منها..

وقد كان هذا الموقف يحتوى - أساسًا - على الإحساس بالتفوق الغربى على شعوب وأمم (متخلفة) - كما تراها تاتشر..

وكان هذا الموقف يتخذ شكلا (فائق القيمة التاريخية) للفعل الإنجليزي الذى وضع نصب عينيه (المجد) القديم..

وهو مجد كان لا يخرج عن اثنين:

- إما العودة للمتخيل الإمبراطورى القديم

- وإما الجهر بالحلم فى شكل عداء ثابت

وجاءت تاتشر لتعبر عن الحلم/ الحاضر بوجهها الجامد وقسوتها المعلنة التى كان يمكن أن نجد أمثلة عديدة لها فى بقية دول الشمال، فإذا كانت تاتشر فى بريطانيا، فإن كيسنجر وهيج فى أمريكا..

الوجه الاستعمارى واحد

والمسميات تختلف

ونقترب، أكثر، لنرى، عبر فعل (الست) تاتشر رد الفعل على ما يحدث فى عالمنا العربى..

عبر عدة أقنعة..

لنقترب..

## كلاكي٢

كان الموقف من إسرائيل أهم هذه الأقتنة..  
وغنى عن الذكر أن هذا القناع الجديد تابع - أساسًا - من نظرة استعمارية قديمة أكدتها  
- الآن - الأحلام بالسيطرة وإعادة المجد التقليد..  
كان موقف تاتشر من إسرائيل يتحدد حول (أمن إسرائيل)، وفي فترات الصراع المصيرى بين  
العرب وإسرائيل كان الموقف يأخذ شكلاً منحازاً سافراً ووقحاً، بدون تردد..  
كان موقف تاتشر دائماً يتلخص حول كيفية «الحفاظ على أمن دولة إسرائيل وتأمين  
استمرارها».

فحين كانت تاتشر تلتقى بشيمون بيريز - على سبيل المثال - لم تكن الصحف العربية عندنا،  
تنقل لنا، ما كان يحدث دائماً بين رئيسة الوزراء الإنجليزية والزعيم الإسرائيلي..  
كان يحدث الانحياز الصريح، ويشكل لم تكن تاتشر لتخفيه قط، ومن ذلك أنه حينما التقى  
زعيم حزب العمل الإسرائيلي برئيسة الوزراء الإنجليزية - تحديداً فى ٢٢ يناير ١٩٨٦ -  
وجهت تاتشر إليه الدعوة فى مقر إقامتها «بداوننج ستريت» وكان معظم الحاضرين من وزرائها  
اليهود ما عدا وزير خارجيتها - آنذاك - سير يجفيري هاو، وهم، سير كيث جوزيف نايجل  
لونسون، لوردينج، مالكوم ريفكند، ليون بريتين، وعلى مائدة العشاء تلا الحاخام جاكوفيست،  
صلاة المائدة، ولم تكتف تاتشر بتلك الصلاة، بل قالت «وطلبت من الأسقف اليهودى تلاوة صلاة  
أخرى يالها من ليئة تعبد» (المسلمون ٢١ ديسمبر ١٩٩٠).

وكان يكفى أن نتنبه، قليلاً إلى زيارات تاتشر إلى الشرق، لنذكر أنها لم تكن لتهمم بدولة،  
فى العالم كله، بمثل ما اهتمت إسرائيل (بالست) التى لم تزر دولة فى المنطقة العربية إلا دولة  
إسرائيل، والإشادة بها كثيراً..

لم تكن إسرائيل - عندها - إحدى دول المنطقة.. كانت دولة غربية.. وكانت سياسة (الست)  
تبعاً لذلك سياسة إسرائيلية..

وهو ما بدأ أكثر وضوحاً فى سياستها الداخلية كذلك..

إن مراجعة الصحف الإنجليزية فى هذه الفترة التى حكمت فيها تاتشر فعلياً ترينا كيف أنها  
وقفت - صراحة وبدون موارد - إلى جانب إسرائيل، ويتمثل هذا فى الاهتمام بالشخصيات  
اليهودية التى تتولى مناصب حيوية فى بريطانيا..

إن تاتشر أسندت وزارة التريبة فى حكومة المحافظين الثانية (١٩٨٣) إلى الزعيم الخفى  
والأب الروحى لتاتشر نفسها - كيث جوزيف اليهودى - وهذا الرجل استطاع من خلالها

تكريس كل جهوده لنشر الثقافة اليهودية، ثم نظر كيث إلى وزارة الخارجية، فوجد فيها حوالى (١٥) دبلوماسياً مستعرباً ممن يجيدون شيئاً من اللغة العربية لتخصصهم فى دراسة ثقافتها وأدبها؛ مما حدا لبعض منهم للتعاطف مع القضايا العربية كالذى حدث فى مواقف ديفيد ميللر، وويليام ويلد جريف، اللذين كان نصيبهما فيما بعد وزارة الصحة، فما كان من كيث إلا أن رشح يهودياً آخر لمنصب وزير دولة للشئون الخارجية، فكان اليهودى الأستكتلندى مالكوم ريفكن وهو ابن لعمود المعبد اليهودى الأرثوذكسى اليجا؛ وهذا ما جعل من بين اهتمامات ريفكن المتعددة والمتصلة بجذوره الدينية اهتمامه بقضية مثل قضية الفلاشا، اليهود الأثيوبيين السود..

ولا نريد أن نقول الآن إن اليهود الفلاشا كانوا من أهم قضايا تاتشر؛ إذ ساعدت كثيراً فى نقل عدد كبير منهم المرة الأولى، وهو ما سار على دربه حكومة تاتشر الأخيرة (حكومة مييجور) حين لعبت دوراً مشابهاً للدور الأول للمساهمة فى نقل الفلاشا لإسرائيل فى إبان الحرب الأهلية فى أثيوبيا تحت غطاء رعاية المفاوضات بين المعارضة الأثيوبية وبقايا نظام منجستو..

الأكثر من هذا أن تاتشر، حتى وهى تحيا - جسمانياً - فى بيتها فى جنوب لندن، تهتم بهذه القضية دون غيرها فتتوالى التصريحات بعد هجرة الفلاشا منها لتشير بكل فرح لما حدث، بل وحين التقت بوفد من قيادة اتحاد المنظمات اليهودية وتحدثت عن عداء السامية فى الاتحاد السوفيتى! (وعلامه التعجب هذه من وضعنا)، وهى تعتبر قانون الهجرة الذى صدر أخيراً عن البرلمان السوفيتى بعد أن أقره «إنجازاً كبيراً فى سير التحولات الديموقراطية!» (وعلامه التعجب من وضعنا..).

لم أنقل أن تاتشر مازالت فى كرسى الحكم..

لنأخذ مثلاً أخيراً قبل أن نصل إلى قناع آخر.. نحن الآن فى نهاية حكم (الست) - ديسمبر ١٩٨٩ - فإذا بنا نراها تمنح أحد حاخامات اليهود لقب لورد فيما كانت التقاليد تفرض منح هذا اللقب لأحد أساقفة الكنيسة الإنجليزية هناك.. هو (Jakob Borist).

وهذه هى الفترة التى كتب فى الصحف الإنجليزية عن تعاطف تاتشر مع الشخصيات اليهودية؛ مما دفعها إلى منحهم مناصب عديدة على حساب مواطنيها من الإنجليز، وتذكر هذه الصحف أن المرأة الوحيدة التى استطاعت أن تجد لها مكاناً فى حكومة تاتشر كانت يهودية - أدونيا كورى - والتى شغلت منصب وزارة الصحة..

هل هذا معقول؟

## كلاكيث ٢

وهنا نصل إلى موقف آخر..

الوجه الجديد للنست فى أزمة الخليج

وهو موقف يقوم أساسًا على تأييد مركز الغرب الأول الآن (أمريكا). في التحالف المعلن بين العديد من الدول الغربية (الاستعمارية قديمًا..) والولايات المتحدة لصنع السلام الأمريكي.. أو السلام على الطريقة الأمريكية..

وهذا القناع (التاتشري) يقوم على منطق أكثر إقناعًا في الظاهر بينما هو استعماري عريق في الواقع..

ففي الظاهر يقوم على تأييد المركز - أمريكا - وتأييد المركز هنا يعني تأييد الطرف التابع له في «المنظومة» الغربية..

فإذا كان الموقف الأمريكي في أزمة الخليج يقوم على أن أمريكا تكون هي الطرف المهيمن في الأزمة، فإن بريطانيا (العظمى) - على اعتبار ما سيكون - تظل أهم لوازم هذا الطرف على الإطلاق بهدف استعادة بعض (ما كان)..

وهذا الموقف كان واضحًا قبل غزو العراق للكويت.. وبعدها.. فمئذ البداية بدت تاتشر أكثر دول (التحالف) مشاركة للأمريكيين وأكثر الدول تحيزًا لموقف العم سام بدون تردد أو مراجعة (كما فعل الجانب الفرنسي، على الأقل، كنوع من المناورة)، وهذا الموقف لم يتغير قط فيما بعد.. حتى بعد خروج تاتشر..

وفي فترة احتدام الأزمة، كان ميغور (رجل الست) يعبر بشكل أو بآخر عن أفكار بوش، أو يتحدث عنه من آن إلى آخر..

إنه توزيع الأدوار بالطريقة التاتشرية

وحين بدا يلوح في الجو طيف التفاوض - لأكثر من مرة - كان ميغور متشددًا أكثر من بوش، ومرددًا: ضرورة الهجوم ومعاملة العراق بقسوة وبشدة..

كان ميغور أمريكيًا أكثر من الأمريكيين أنفسهم..

وهذا الموقف من ميغور، كان امتدادًا لموقف سابق لتاتشر، لم تتوقف تاتشر - من قبل - عن الهجوم العنيف على صدام حسين..

لم تتوان عن التحريض على النظام العراقي الصفيق..

لم تتراجع قيد أنملة عن عرض كل التسهيلات على الأمريكيين الذين يزعمون الهجوم على (طاغية) بغداد..

وبغض النظر عن موقف صدام حسين (ليس هنا مجال لتقييمه)، فقد بدا الموقف التاتشري أكثر عدوانية من موقف الشيخ جابر نفسه..

وربما يفسر ذلك أنه حين خرجت تاتشر من الحكم خرجت الصحف العراقية ووسائل الإعلام في بغداد لتتحدث عن سقوط المرأة (الشمطاء)، وعن الموقف العراقي الذي أسهم في ذلك..

ويمكن أن نضيف إلى ذلك، أن تاتشر لم تخرج من مجلس الوزراء - بالفعل - إلا بعد تهيئة المناخ لحليفتها - صانع القرار الإنجليزي - للوقوف ضد العرب..  
لقد تركت خلفها فلسفة (تاتشرية) تواصل سياسة التشدد - على رغم أنه كان يلوح في الأفق رايات التفاوض والمرونة - وكان يتم ذلك بالتصريحات العنيفة إلى درجة الصفاقة، أو - حتى بعد أن رحلت - بالأبناء على وزير الخارجية الإنجليزي دوجلاس هيرد والدفاع توم كينج في التعديل الوزاري الأخير..

وقد كان ميجور نفسه، أكثر المرشحين الثلاثة - حينئذ - تأييداً لتاتشر، وقرباً منها، فشخصيته التابعة يمكن أن تكون أكثر عوامل استقرار واستمرار هذه السياسة التي اتبعتها.  
والمعروف، أن ميجور، كان قبل أن يقف في الظل التاتشري - كمسنول - من أكثر المقربين منها، الخاضعين لها خضوعاً خالصاً؛ إذ كان يتردد على مجالسها الخاصة، حتى إنه عين - من خلالها - ولأول مرة وزيراً للخزانة في عام ١٩٧٩، ويجمع المراقبون السياسيون في لندن، على أن ميجور «يتمتع بصفات مشابهة لصفات تاتشر الاجتماعية والعائلية، كلاهما لا ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية»

تاتشر كانت - في الأصل - ابنة بقال

وميجور - كان في الأصل - ابن لاعب سيرك

تاتشر تتخرج في كلية الصيدلة لتعمل في وظيفة..

وميجور يعمل موظفاً

وتدرجا معاً حتى أصبحا أعضاء بمجلس العموم..

وقد كان أبلغ دليل على التقاء فكرهما، أن تاتشر كانت قد أعلنت أنها سوف تزور القوات البريطانية في الخليج، وقد حقق ميجور رغبتها حين تولى هو المسؤولية، فقام بالفعل بزيارة الجنود الإنجليز، هناك، في أرض العرب..

وحتى بعد هزيمة العراق وعودتها إلى القرون الوسطى، فقد كان ظل (الست) مهيمناً على تصريحات ميجور: إن ضرورة الإبقاء على العراق، هناك، في خراب الهزيمة. وكان يتم ذلك - على حد تعبير هشام شرابي في عدد الحياة ٢٩ يناير ١٩٩١ - في لغة فوقية إملائية فرضية متعالية تتعمد الإثارة والإذلال. وهي لغة تأتي عفوية على اعتبار أنها لغة - القوى - المسيطر، الذي يتصرف عادة كأن العالم خلق لخدمته.

إن تاتشر، على رغم أنها تقيم الآن في إحدى ضواحي لندن الجنوبية، فهي ما زالت هنا، في قلب العاصمة البريطانية، وتحديداً، في كرسي رئيس الوزراء، صانع القرار الإنجليزي (جلادستون. وتشرشل.. وإيدن..).

تاتشر هنا، نعم.. تحصل على الأوسمة وتبيع مذكراتها وتدلى بأفكارها، وتنتظر.

## المراجع

يلاحظ أن المراجع الكثيرة عن تاتشر ترسم صورة صحيحة لهذه المرأة الحديدية كأن توصف بالمرأة الحديدية وهذا كان له بواعث بالفعل في الشخصية، وهنا نلاحظ أن هذه الصفة كانت تلازمها لأنها كانت قوية شديدة وتتخذ قرارات كبيرة وتحمل تبعاتها وتواجه الظروف بقوة تحمّل ربما تفوق فيها الكثير من الرجال حيث إنه في منتصف شهر مارس عام ١٩٨٣م قبل ٢٢ عاماً كانت رئيسة وزراء بريطانيا مارجريت تاتشر قد وصلت إلى مقر إقامتها في مدينة برايتون الساحلية جنوب إنجلترا استعداداً لمؤتمر دولي في اليوم التالي. وما أن استقرت في الفندق المعد لإقامتها إلا وحدث انفجار ضخم في نفس الفندق قامت به جماعة من الإرهابيين. فما كان من تاتشر إلا أن انتقلت إلى جناح آخر في الفندق لم تصله آثار الانفجار تحمل أوراقها ومذكراتها وأكملت فيه بقية المساء لتقف في صباح اليوم التالي وكما هو محدد سابقاً في تمام الساعة التاسعة أمام جميع الحاضرين في المكان المعد للمؤتمر. وقفت وهي تقول:

– ها آنذا أقف أمامكم في نفس اليوم وفي نفس الساعة المحددة للمؤتمر لأقول للإرهابيين إنهم لن يستطيعوا أن يمنعونا من متابعة مسيرتنا نحو البناء والتشييد !! :

انظر على سبيل المثال :

[http://www.alshamsi.net/man/mel/margrait\\_tatsher.html](http://www.alshamsi.net/man/mel/margrait_tatsher.html)

وتعطينا الكثير من المراجع الرقمية هنا من أمثال :

- <http://www.alrai.com/page>
- <http://www.stop55.com>
- <http://www.iraqcp.org.htm>
- <http://www.aljazeera.net/News/archive/archive?>
- <http://www.almotamar.net/news/57913.htm>